# الفصل الرابع

## محاولات خادعة لاحتواء العالَم الإسلامى

كان الغزو العسكرى الأوروبى للبلاد الإسلامية أحد المحاور التى سلكها الغرب لمواجهة الإسلام ، ولم يكن المحور الوحيد ولا الوسيلة الوحيدة فى سلوك الغرب . وقد رأينا منذ قليل كيف استخدم الغرب أو الدول الحليفة فى الحرب العالَمية الأولى ، كيف استخدمت كل الإمكانات العربية فى الحرب مقابل وعود كانت تلك الدول تنوى عدم الوفاء بها تجاه العرب بعد أن تضع الحرب أوزارها ويتحقق لها النصر .

وقد سبقت الحرب العالَمية الأولى محاولات خادعة لاحتواء الإسلام كما واكبتها محاولات أخرى خادعة من جانب القُوَى العظمى فى الغرب والشرق معاً ( أعنى روسيا البلشفية ) .

ولكن المسلمين كانوا على حذر مما يقال لهم . وقد حماهم الله فلم يرتموا فى أتون تلك الظواهر الخادعة كما ارتموا فى أتون الوعود البريطانية إبّان الحرب ، وقاموا بثورتهم العربية التى اكتشفوا فى النهاية أنهم كانوا يقاتلون أنفسهم ويخطون خطوات سريعة إلى الهاوية ، والمحاولات الخادعة التى نعرض لها هنا فى إيجاز نعرضها حسب أهميتها غير ناظرين للترتيب الزمنى فى عرضها . وهذا يقتضى أن نبدأ بعرض الموقف الروسى بعد قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧

● البيان الروسى :

لم يكن لروسيا القيصرية نصيب فى الوطن العربى حسب اتفاقية « سايكس - بيكو » ، كما تقدَّم . بل كان نصيبها من تِركة الرجل المريض « تركيا » خارج نطاق الوطن العربى ، وقبل أن تنتهى الحرب العالَمية الأولى بعام قامت الثورة البلشفية الحمراء فى روسيا وأطاحت بالنظام القيصرى ، وبسطت الشيوعية نفوذها على أرجاء البلاد . وأدرك قادة روسيا « الجديدة » مطامع القُوَى الأوروبية فى العالَم الإسلامى . وبعد تفكير سريع ، والحرب العالَمية الأولى ما تزال معلنة ، قرر البلاشفة أن يسبقوا أوروبا فى احتواء العالَم الإسلامى وأن يتخذوا منه - من العالَم الإسلامى - جبهة فعَّالة لمواجهة أوروبا . وقد ساعدتهم الظروف إذ ذاك ، فقد وضعوا أيديهم على وثائق المعاهدات السرية والعلنية التى عقدها القيصر - قبل الإطاحة به - مع الإنجليز ضد العالَم الإسلامى بعامة ، وضد العالَم العربى بوجه خاص . هذه الظروف هيأت للبلاشفة أصول اللعبة التى يريدون القيام بها . فأعلنوا عن اتفاقية « سايكس - بيكو » ، وأفشوا أسرارها ، وتسببوا للإنجليز وفرنسا فى حرج شديد أمام مَن اصطنعوا معهم الود والإخلاص وجرُّوهم إلى الحرب جراً ( العرب ) وبذلك بدأوا يغازلون العرب ويأخذون طريقهم إلى قلوبهم .

ثم أصدرت روسيا فى بداية عهدها الجديد بيانين : أحدهما لمسلمى روسيا نفسها ، وكان عددهم حينذاك عشرين مليوناً . وقد جاء فى ذاك البيان :

« لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين - تعنى أوروبا - وإن الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين والاستعماريين . يا مسلمى روسيا ، يا مَن خربت مساجدهم ، وهدمت بيوت عبادتكم نعلن لكم : أن عقائدكم الدينية ، وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداءً من اليوم مصونة ، لن تمتد إليها يد آثمة . أقيموا حياتكم القومية فى جو الحرية ، دون أن يعوقها عائق . فلكم الحق فى ذلك » ( ؟! ) .

كان هذا البيان موجهاً لمسلمى روسيا ، ومما لا نزاع فيه أن البلاشفة قد نجحوا فيه . فإن من شأن بيان كهذا أن يساعد إلى درجة كبيرة على استقرار الأحوال الداخلية فى ربوع الدولة . وإسكات عشرين مليوناً من المسلمين مكسب رائع جداً للثوّار ، وهم كانوا ما يزالون من أمَسِّ الحاجة إلى توطيد أقدامهم فى البلاد .

*

● وبيان إلى مسلمى العالَم :

ويبدو أن البيان الأول قد أثمر بشكل ملحوظ وسريع ، لذلك أقدم البلاشفة على إذاعة إعلان آخر موجهاً إلى العالَم الإسلامى يحمل نفس الطابع الذى أذيع به الإعلان الأول . يقول الإعلان أو البيان الشامل :

« يا مسلمى الشرق : يا إيرانيون ، يا أتراك ، يا عرب . يا مَن مارس المغتصبون القادمون من أوروبا التجارة قروناً بأرواحهم وأموالهم وحرياتهم ، وأوطانهم . يا مَن قسَّم دياركم هؤلاء النُهَّاب الذين أشعلوا الحرب العالَمية ، نعلن لكم :

إن معاهدات القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مُزِّقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية ( ؟! ) .

إن معاهدة تقسيم إيران قد مُزِّقت وأزيلت من الوجود ( ؟! ) .

إن معاهدة تقسيم تركيا ، واغتصاب أرمينية قد مُزِّقت ومحيت من الوجود » [1] .

كان لهذين البيانين أثر بعيد المدى فى ربوع العالَم الإسلامى ، وبخاصة فى تركيا وإيران . وتزايد عدد المؤيدين لسياسة روسيا تزايداً كبيراً وكان من الحتمى

---

(١) الإسلام قوة الغد - تعريب د . شامة - ص ٢١٨

أن تنجح هذه السياسة فى العالَم الإسلامى ما دامت تمنح الحريات المطلقة للشعوب ، وتدفع عنها وطأة الاستعمار الغربى الذى أسفرت التجارب عن مساوئه ووجوهه الكالحة .

* *

● مجلس أعلى للشئون الإسلامية :

وفى يناير سنة ١٩١٨ أنشأت حكومة موسكو لجنة مركزية إسلامية عليا ( مجلس أعلى للشئون الإسلامية ) للنظر فى شئون المسلمين داخل البلاد . ثم دعمته الحكومة بالمال ووسَّعت من سلطانه وسمحت له بالعمل خارج حدود الدولة ، فعَلاَ البِشر الوجوه ، وزاد نجم روسيا تألقاً فى ديار الإسلام .

وعقد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مؤتمراً فى ديسمبر ١٩١٨ - أى بعد مولده بعام واحد - وفى أثناء عقد المؤتمر تكوَّنت « رابطة تحرير الشرق » ، وجمَّع المؤتمر أعماله فى مذكرات بعنوان : « الشرق والثورة » واهتم أيما اهتمام بالحديث عن منهج روسيا السياسى الخارجى .. وقد أشاد هذا المؤتمر ( الموجَّه ) بالوحدة الإسلامية ، كما بدأت النيَّات الخفية لروسيا تجاه العالَم الإسلامى تتراءى بوضوح من خلال هذه العبارة التى وردت فى المذكرات المشار إليها :

« كانت الوحدة الإسلامية فى جوهرها حركة دينية وطنية . فالإسلام دين سياسى كان له دور لا يُستهان به فى توجيه أجهزة الدولة السياسية فقد كانت حياة المسلمين الدينية إيجابية فى المجتمع ، تخللها الفكر المناضل السياسى . ولهذا تستطيع الوحدة الإسلامية أن تقوم بنشاطها مرة أخرى ، كحركة دينية استعادت هيئتها وهيبتها ، وتقف للنضال ضد الاستعمار الغربى ، فتعقد تحالفاً بنَّاءً مع روسيا الجديدة التى تناضل فى نفس الميدان » .

ولا نريد أن نقطع عن القارىء موارد التفكير الحر بالمبادرة إلى كشف اللثام عن الوجه الحقيقى لروسيا الجديدة وراء هذه السياسة . فسوف نعود لهذا فيما بعد ، ولكن الذى ندعو القارىء إليه أن يتأمل جيداً الجملة الأخيرة التى وضعناها فوق الخط ، فهى « الثقب » الذى يرى من خلاله كل الخبايا .

وأنشأت « رابطة تحرير الشرق » مدرسة عليا فى طشقند لتخريج القادة والرسل والسفراء فى كل من آسيا وإفريقيا لاستقطاب الشعوب الإسلامية وتوجيههم إلى موسكو وسياستها للاستفادة منها فى النضال المرتقب ضد الاستعمار الغربى .

* *

● باكو - وإزاحة الستار عن اللعبة :

فى أوائل خريف عام ١٩٢٠ دعت الحكومة الروسية إلى عقد مؤتمر عام ( عالمى ) لشعوب الشرق فى مدينة « باكو » عاصمة أذربيجان الآن ، ووجهت الدعوة إلى .. ٢٥ عضو من جميع العالَم الإسلامى ، وكانوا يمثلون المسلمين فى جميع أنحاء العالَم ، وكان عددهم يُقدَّر بـ ٢٥ مليون مسلم . أى عضو واحد لكل عشرة آلاف مسلم .

*

● بريطانيا تتنبه :

أحست بريطانيا بخطورة ما تنتهجه روسيا الجديدة ، فوضعت بعض العراقيل فى طريق نجاح المؤتمر ، فألقت القبض على الأعضاء والمدعوين من الهند ، ووضعت القنابل فى السفينة التى ستنقل الوفد الإيرانى ( ؟! ) ورفضت أن تعطى تأشيرات خروج للأعضاء الذين تسيطر بريطانيا على مقاليد الأمور فى أوطانهم كمصر والعراق والهند .

وقد أحدثت العراقيل التى وضعتها بريطانيا خللاً فى خط سير المؤتمر ، فلم يتمكن من الحضور إليه سوى ١٨٠ عضو من إجمالى المدعوين ، وهم ٢٥٠ عضو ! ولكنه عدد لا بأس به .. ثم انعقد المؤتمر فعلاً .

*

● وقائع المؤتمر :

باختصار شديد نقول : إن المؤتمر قد أسفر عن واقعتين شديدتى الخطورة كانتا فى مقدمة الظواهر التى أدت إلى ما يمكن أن نشبهه بعملية « فسخ الخطوبة » وهى ما تزال على الأعتاب ، والواقعتان هما :

الأولى : أن الشيوعيين أعلنوا فى المؤتمر أن الشيوعية والإسلام صنوان لأصل واحد . أو هما شقيقان يحمل كل منهما خصائص « الأبوة » وملامحها ، بالإضافة إلى الملامح الخاصة بكل منهما . قال الشيوعيين :

« كما أن الإسلام يدعو إلى المساواة بين أتباعه ، ويؤاخى بينهم ، كذلك يضم رباط أخوى كل الذين يؤمنون بالنظام الاشتراكى البلشفى ، الذى يدعو إلى المساواة ، فهو يشبه النظام الإسلامى » ( ؟! ) .

وقد قابل الأعضاء المسلمون فى المؤتمر هذا الزعم بالرفض التام ، وأصيب الشيوعيون بصدمة عنيفة . فهم ما فعلوا من قبل من التزلف والبيانات المعسولة تجاه العالَم الإسلامى إلا من أجل « اصطياد المسلمين » ولكن المسلمين فى هذه المرة لم يكونوا كالعرب الذين كانوا قد خُدِعُوا بغزل بريطانيا الكاذب وشنُّوا حرباً شعواء ضد أنفسهم قبل أن يشنُّوها ضد تركيا إخوانهم فى الدين .

الواقعة الثانية : كانت روسيا تهدف إلى قيام ثورات تحريرية فى العالَم الإسلامى ضد الاستعمار الأوروبى ، وقد ألمحت الفقرة التى نقلناها ووضعنا جزءاً منها فوق الخط فيما مضى إلى هذا المعنى . وأن روسيا ترحب بهذا النوع من الحملات والثورات ، والإسلام ، وهو دين سياسى كما جاء فى الفقرة المشار إليها ، قادر بوحدته أن يقوم شعوبه بهذا الدور . وجاء الشيوعيون إلى المؤتمر ، وأرادوا أن يطرقوا الحديد وهو ساخن فأعلنوا للمؤتمرين أن تلك الثورات المزمع القيام بها فى أرجاء العالَم الإسلامى يجب أن تقوم على الفكر الاشتراكى ، وهنا ظهرت نيَّة روسيا الجديدة فى احتواء العالَم الإسلامى ، وجعله مسرحاً

لانطلاق الأيديولوچية الشيوعية الحبيسة حتى ذلك الحين أى أن روسيا نظرت إلى العالَم الإسلامى إلى أنه « كبش هزيل » ( ؟! ) ثم أرادت أن تسمنه ثم تذبحه وتأكله » ( ؟! ) .

* *

● رد الفعل :

انقسم المسلمون المؤتمرون أمام هذه « اللعبة » قسمين كبيرين ، قسم رحُّب بالفكرة ولم ير فيها أية غضاضة ، وقسم فطن إلى أصول اللعبة فرحُّب بمساندة روسيا للثورات التحررية فى العالَم الإسلامى ، وفى نفس الوقت استبعد أن تغذى روسيا تلك الثورات بفكرها الشيوعى . وأن على روسيا أن تقتصر بتوجيهها الفكرى على الثورات التى تقوم بها داخل حدودها . ومعنى هذا أن على روسيا أن تنظر إلى العالَم الإسلامى على أنه « صديق كفء » وليس دمية يحركها الشيوعيون متى وكيف شاءوا .

* *

● البديل :

خابت آمال روسيا نسبياً فى مؤتمر « باكو » وتبيُّن لها أن احتواء العالَم الإسلامى كله - وفى جرعة واحدة - من أصعب ما يكون إن لم يكن مستحيلاً . وقد أملت عليها هذه الخيبة أن تبحث عن بديل ممكن تحقيقه . فاتجه تفكيرها إلى ثلاثة أقطار إسلامية غير عربية تقع قريباً من حدود روسيا ، وهى : الأفغانستان - إيران - تركيا . ووطَّدت علاقاتها مع هذه الدول كُلاً على حِدة :

● أفغانستان :

كانت أفغانستان واقعة تحت التبعية الكاملة لإنجلترا ، فبدأت روسيا بتشويه سمعة أصدقاء إنجلترا فى أفغانستان ، وبثَّت عملاءها فى داخل البلاد ، وسخت مساعداتها المادية ، وبفضل الدعاية الشيوعية تكوَّنت « حركة الاستقلال

الوطنى الأفغانية » وكانت هذه الحركة هى القشة التى قصمت ظَهْر البعير ( إنجلترا ) وكان أول انتصار لسياسة روسيا فى أفغانستان على إنجلترا حين دبَّ النزاع بين أفغانستان والهند على مسألة الحدود بين البلدين عام ١٩١٩ . ومُنِىَ الجيش الإنجليزى بهزيمة مُرَّة آنذاك ، ثم مُنيت الديبلوماسية الإنجليزية بهزيمة أشد مرارة حيث قبلت شروط صلح « روالبندى » فى نفس العام ١٩١٩ وأخيراً جنت روسيا ثمار هذه السياسة بتوقيع معاهدة مع أفغانستان عام ١٩٢١ جاء فيها :

« إن الطرفين - روسيا ثم أفغانستان - قد التزما بأن لا يعقد أحدهما مع قوة ثالثة معاهدة تضر بمصالح الطرف الآخر .. وبتدعيم التمثيل الديبلوماسى بين البلدين . وأن تقدِّم روسيا مساعدة مالية كريمة لحكومة كابول ... » إلخ .

وقدَّمت روسيا تنازلات أخرى استقطبت بها ولاء أفغانستان السياسى والاقتصادى . والحق يقال : إن الأفغانيين وقفوا عند حدود معلومة فى علاقة روسيا بهم . فلم يسمحوا للمبادىء الشيوعية داخل حدودها . ولما يئست روسيا من بَثِّ مبادئها داخل الأفغان أخذ عملاؤها يوجِّهون تلك الدعاية إلى الهند .

* *

● إيران :

وخطت روسيا خطوات جبارة لاحتواء إيران . ومن أبرز تلك الخطوات وأسرعها إرسال فرق من الجيش الأحمر إلى فارس ، ورحَّب به الشعب والحكومة معاً ليكون درعاً لهم ضد النفوذ الإنجليزى ، ولكن مناوشات قام بها بعض الإيرانيين حين اكتشفوا المهمة الحقيقية للجيش الروسى فى فارس ، كادت تفيت الفرصة على روسيا ، لولا أنها أسرعت إلى تفاديها .

وقد تمكنت روسيا من عقد معاهدة مع حكومة « فارس » فى شهر فبراير ١٩٢١ قدَّمت من خلالها تنازلات سخية أسالت لعاب الإيرانيين للترحيب بروسيا كصديق وفىّ ، وسند قوى ضد الاستعمار الغربى . فالتزمت بحدود البيان العام

الذى كانت روسيا قد قررت فيه مساندتها للعالَم الإسلامى ، وإلغاء كل المعاهدات التى كان القيصر قد أبرمها من قبل ضد حرية البلاد الإسلامية ومصالحها وجعلها مناطق نفوذ بين روسيا وإنجلترا وغيرها من دول الغرب الاستعمارية . كما ألغت بمقتضى المعاهدة كل الديون التى على فارس لروسيا . ووهبتها كل المنشآت الروسية داخل إيران .

* *

● تركيا :

وتقرَّبت روسيا من تركيا . وقامت روسيا فى هذا المجال بعمل متواصل لدرجة أن عرضت المساعدة العسكرية برجال جيشها ليساندوا تركيا فى حربها ضد المستعمرين ، ولكن أتاتورك رفض هذا العرض . وأخذت روسيا تصطنع مظاهر الود والتزلف إلى تركيا حتى تمكنت من عقد معاهدة صداقة بينها وبين تركيا عام ١٩٢١ فى ١٦ مارس . . وحاولت روسيا عقب ذلك عن طريق عملائها فى تركيا قيام حزب شيوعى يكون سنداً لها من الداخل . وكل هذه المعاهدات والتنازلات كانت البديل عن احتواء العالَم الإسلامى الذى كان هو الهدف الأول لروسيا عقب قيام ثورتها الحمراء ، وهكذا حققت روسيا بعض النجاح فى العالَم الإسلامى المتاخم لحدودها .

كما سلكت سياسة شبيهة فى البلدان الإسلامية البعيدة عن حدودها عن طريق عقد المعاهدات والصداقات وقيام الأحزاب الشيوعية داخل البلاد . وما تزال روسيا تنتهج تلك السياسة إلى الآن فى بعض العواصم العربية كلما سنحت لها فرصة الظهور .

وروسيا تعمل جاهدة - الآن (١٩٩٠) - على بَثِّ مبادئها فى العالَم الإسلامى عن طريق الأحزاب الشيوعية أو عن طريق عملائها وملحقاتها الثقافية ونشراتها وكتيباتها التى توزع مجاناً فى أحيان كثيرة ، وعن الصحف الموالية لهم ، أو الزعماء الذين تجندهم لخدمة مصالحها وأيديولوچياتها وتدرب دعاتها

تدريباً ذكياً ليخدموا الشيوعية متسترين وراء شعارات تخفى وجه الشيوعية الخبيث . ووسائلها فى هذا المجال لا تكاد تُحصَى . والهدف الأول والأخير هو القضاء على الإسلام بأى ثمن ؛ لأنه العائق والمنافس الوحيد لسيطرة المبادىء الحمراء .

* *

● أثر هذه السياسة :

من البديه أن سياسة روسيا المعسولة تجاه العالَم الإسلامى لم تحقق المقصود الأهم منها ، وهو احتواء العالَم الإسلامى فكرياً وأيديولوچياً . وأنها رضيت بالبديل الذى أشرنا إليه ..

ومن ناحية العالَم الإسلامى فإنه استفاد بعض الإيجابيات من خلال سياسة روسيا تجاهه . فنمت لديهم موجات من الوعى المبشِّر . كما تخلَّصت بعض الأقطار الإسلامية من وطأة الاستعمار الغربى بفضل مساندة روسيا لهم ، ورُبَّ ضارة نافعة ، كما يقول المثل .

أما من ناحية الغرب ، فقد كان أبرز أثر لسياسة روسيا نحو الشرق الإسلامى أن اضطرت إنجلترا لتعديل سياستها نحو البلاد الإسلامية التى كانت واقعة تحت سيطرة التاج البريطانى . فعدلت عن أساليب الغزو المسلَّح والقمع إلى اتخاذ الوسائل الديبلوماسية فى رسم سياستها نحو الشرق وفى برامج تنفيذها . وقد استفاد الشرق من هذا الاتجاه فزال عنه كابوس الحروب ، وأفاق نوعاً ما إلى نفسه ، ويمكن إيجاز الموقف الجديد لبريطانيا فى النقطتين الآتيتين :

الأولى : إعتماد بريطانيا على معتمديها السامين فى تنفيذ ما تراه فى البلاد الإسلامية ، والإشراف على برامج التلقى والتنفيذ .

والأخرى : اصطناع عملاء مخلصين لها من الوطنيين يروِّجون لسياساتها ، ويَدْعون بنى وطنهم إلى الإيمان بها واحترامها ، مع توليتهم المناصب المؤثرة فى

القيادة وصنع الرأى العام والإغداق عليهم بالنعم والألقاب الرفيعة البراقة ليكونوا أكثر جذباً لبنى وطنهم [1] ، واصطناع أساليب التمويه والنفاق بشكل عام .

ويمكن كذلك أن نقول إن خصوم الإسلام من زعماء أوروبا ودولهم الاستعمارية عوّلوا أولاً على الغزو العسكرى . وثانياً على الديبلوماسية الهادئة . وثالثاً : على إيجاد عملائهم بصفة مستمرة من أبناء الوطن نفسه . وليس لهذه الوسيلة بديل ، فهى تقع فى نهاية المطاف لأنها أخلد وأبقى ، وأقوى .

ويحضرنى - الآن - معنى كلام لأحد المندوبين السامين لإنجلترا فى مصر قاله فى آخر عهده بمصر - وكان صادقاً فيما قال - وإليك معنى كلامه لا نصه :

« إن الإسلام هو العقبة الكئود التى تتصدى لأى نفوذ أجنبى فى مصر . وإننا سنرحل عن مصر ، ولكن لن يصلح لحكم مصر إلا الذين سيتربون تربية غربية .. سنرحل عن مصر ، ولكننا سنحكم مصر بعد رحيلنا عنها برءوس مصرية ، ومبادىء وقِيَم أوروبية » ( ؟! ) .

والواقع أنهم نجحوا إلى حد بعيد فى تنفيذ المخطط الذى أفصح عنه « كرومر » وأثبتنا معناه فيما تقدم .

* *

● خطبة لورد لويد :

أرخص سلاح يستعمله خصوم الإسلام هو النفاق والكذب والتمويه . وبريطانيا بالذات جنت أينع الثمار من حقل النفاق والخداع ، وما قصة الثورة العربية إبّان الحرب العالمية الأولى ببعيدة عن الذاكرة ، وقبيل الحرب العالمية الثانية علت أصوات بعض الزعماء الغربيين بالتودد إلى الإسلام فى محاولة أخرى للتمويه على المسلمين وكسب رضاهم ولو إلى حين . فقام لورد لويد ،

---

(١) على سبيل المثال منحوا أحمد لطفى السيد لقب : أستاذ الجيل ، وطه حسين : عميد الأدب العربى ، وقاسم أمين : محرر المرأة .

وكان مندوباً سامياً سابقاً لإنجلترا فى مصر . قام هذا « اللورد » بإلقاء خطبة معسولة فى أحد مساجد لندن . وكان مما جاء فيها :

« أعتقد أن الإمبراطورية البريطانية لا يمكنها البقاء دون حماية كاملة من المسلمين فى جميع أنحاء العالَم ، فالإسلام - على ما أعتقد - بإمكاناته الروحية والفكرية هو إحدى القوى الجوهرية فى العالَم ، وسوف أعمل - دائماً - كل ما أستطيعه لتوجيه إنجلترا إلى إنشاء علاقات ود وصداقة مع الإسلام فى كل مكان فى العالَم ... » ( ؟! ) .

إن أقل ما يوصف به هذا الكلام أنه لعبة مكشوفة من ألاعيب أعداء الإسلام ، وبخاصة : إنجلترا . فهل كان اللورد المحترم صادقاً مع نفسه ومع الواقع حين قال : إن الإمبراطورية البريطانية لا يمكنها البقاء إلا بحماية كاملة من المسلمين ؟!

إن المسلمين ما أضيروا من دولة استعمارية مثلما أضيروا من إنجلترا . فهى التى استزلت الشعوب الإسلامية ، ووطئت ديارهم وهم لها كارهون . وهى التى وزَّعت دولهم وجزأت أوطانهم لإحكام القبضة عليهم ، وهى التى وضعت الألغام فى كل بلد إسلامى كان لها وجود فيه قبل أن ترحل عنه . هذا هو الواقع ، فكيف يكون اللورد المحترم صادقاً فيما قال !! إن الذى جاء فى هذه الخطبة يعتبر إهانة فى حد ذاته للمسلمين ، إذ معناه أنهم « أغرار » لا يميِّزون بين الخداع والصدق ، ويسيرون وراء كل ناعق . وكفى بذلك ضياعاً ..

والحق يقال .. إن المسلمين كانوا قد عرفوا ألاعيب بريطانيا وحيلها ، فقابلوا هذه الخطبة بوعى مشرِّف ، وكثرت التعليقات الناقدة لها والمتسائلة عم تريد بريطانيا من المسلمين بمثل هذه المراوغات .

والشئ بالشئ يُذكر . فموسولينى الزعيم الإيطالى حاول - كذلك - شراء سرائر المسلمين قبيل الحرب العالَمية الثانية ( عام ١٩٣٣ ) ، وأعلن فى رحلة له إلى ليبيا : أنه صديق الإسلام والمدافع عنه ؟!

وإن المرء ليتساءل سواء أكان مسلماً أو غير مسلم : كيف يكون موسولينى صديقاً للإسلام ومدافعاً عنه . وكانت أوروبا كلها - وما تزال - قد أجمعت على ضرب الإسلام وشل قواه فى الحياة ... ؟!

* * *

● خداع نابليون :

لست أدرى لماذا كان أعداء الإسلام والمسلمين فى بداية اتصال أوروبا بالشرق الإسلامى . لست أدرى لماذا كانوا يفترضون فى المسلمين أنهم « مهابيل » أو « سذج » يمكن إغراؤهم والتغرير بهم . فروسيا وإنجلترا وإيطاليا والبرتغال من قبل عاملت المسلمين بهذا الأسلوب . وقد ضربنا الأمثلة بالنسبة لروسيا وإنجلترا وإيطاليا منذ قليل . أما البرتغال - دولة الاستعمار العجوز - فقد تسللت إلى مخادع البلاد الإسلامية للوقوف على أسرارها والاستفادة منها فى فرض التحكم على تلك البلاد ، وسمّت هذا التجسس والخداع كشوفاً علمية . وانطلت هذه الخديعة على المسلمين . ومن المعروف أن الذى سهّل مهمة « فاسكودى جاما » فى رحلته إلى جزر الهند الشرقية ( أندونسيا ) رجل عربى مسلم يدعى : « أحمد بن ماجد » . وأن خرائط علماء المسلمين عن البحار والمواقع هى التى قد فتحت كل المغاليق للرحّالة البرتغالى « جاما » .

وما دام الأمر كذلك ، فما الذى يمنع فرنسا أن تسير فينا نفس السيرة . فنحن قوم كنا لا نمانع أن نُلْدغ من الجحر الواحد مرات . وكنا - ولعل بعضنا ما يزال - نحسب كل أصفر ديناراً حتى ولو كان الاصفرار لون عقرب أو أفعى ؟!

أجل .. ما الذى يمنع فرنسا من هذه السيرة ؟ فبطلها « العظيم » نابليون بونابرت حين جاء بحملته إلى مصر عام ١٧٩٨ فما كان يضع أقدامه على أرض عروس الثغر « الإسكندرية » حتى يوجه منشوراً إلى القاهرة وضواحيها . يقول نابليون :

« بسم اللّه الرحمن الرحيم ، لا إله إلا اللّه ، لا ولد له ولا شريك له فى

مُلْكه . من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير ، أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت ، يُعرِّف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق [1] الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق المِلّة الفرنساوية .

قد قيل لكم : إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم . فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين : إننى ما قدمتُ إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . وإننى أكثر من المماليك أعبد اللّه سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه ، والقرآن العظيم .. ( ؟! ) .

أيها المشايخ والقضاة والأئمة ... وأعيان البلد .. قولوا لأمتكم : إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ... » ( ؟! ) .

وانطلت هذه الخديعة ، وصدَّق الناس أن نابليون مسلم ، وأن الفرنساوية الذين جاءوا معه - كذلك - مسلمون ؟!

وانطلت الكذبة على صاحبها نابليون فأطلق لحيته وحمل المسبحة بين أصابعه ، وغيَّر اسمه إلى « عبد اللّه » ؟!

وانفتحت له المغاليق فى مصر ، لدرجة أن نابليون كان يرأس مجالس العلماء .. ؟ يا للعار ، بل يا للهول ؟!

* *

● غياب التوجيه الإسلامى :

تلك المواقف الخادعة التى قصصناها ، وإن قوبل بعضها بشئ من الريبة والوعى فإن سَلَفنا الأدنين قد انخدعوا ببعضها وغرقوا فيها إلى الأعناق ، كما حدث فى الثورة العربية عام ١٩١٦ وكما حدث أمام نابليون مصر ، وألاعيبه

---

(١) يقصد بـ « الصناجق » : المماليك ، الذين كانوا يُضيِّقون الخناق على الفرنسيين فى مصر والشام .

المكشوفة فى بداية الأمر .. والسبب فى هذا كله أن المسلمين - العرب - كانوا كالعيس التى أهلكها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول - كما يقول الشاعر .. والماء الذى كان محمولاً على ظهور المسلمين هو القرآن وأحاديث رسوله ﷺ ، وما فيها من توجيهات مفيدة جداً فى مثل هذه المواقف .

أين كان العمل بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (١) .

وأين كان العمل بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ (٢) .

وأين كان العمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ » ؟!

فأين ذهب كياسة المؤمن وفطنته يا تُرَى ؟!

وأين كان العمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين » ؟!

إن العربى فى الجاهلية كان ذا وعى وحنكة بمثل هذه المواقف وقد سجّل شاعرهم هذا بكل وضوح فقال :

غيرُ لاهٍ عداك فاطرح اللهو ... ولا تغترر بعارض سلِم

وقال آخر فأصاب :

إذا رأيتَ نيوب الليث ضاحكة ... فلا تظنَّنَّ أن الليث يبتسم

لقد لعبت المحاولات الخادعة لاحتواء العالَم الإسلامى فصلاً طويلاً فى تمثيلية الدهاء والمكر ، التى وضعها وأخرجها وأجاد حبكتها دهاة الغرب ، وسماسرة الحيل ، وأضير الإسلام والمسلمون من جرائها . ولن يمحو عار ما فات سوى

---

(١) النساء : ٧١ (٢) الحجرات : ٦

الوعى والتنبه ، والحذر من تكرار أمثاله ، فما أكثر أصدقاء اللسان للشعوب الإسلامية - الآن - وهم لا يتورّعون من استعمال التمويه والخداع إذا أتيحت لهم الظروف .. فلنكن أكفاء لأعدائنا ، ولأصدقائنا على حدٍ سواء ، ليحترمنا الصديق ، ويخافنا العدو . فلا فضل للإنسان فى الحياة : إذا طمع فيه عدو ، أو استخف به صديق ..

* * *